
نصوص
رفرفة
بشرى خلفان
الطبعة الثانية

إهـــــــداء ٢٠١٤

الاستاذ الدكتور خالد عزب

**جمهورية مصر العربية**

# رفرفة

بشرى خلفان

# رفرفة

## المؤلفة: بشرى خلفان

(قاصة من سلطنة عمان)

الطبعة الثانية: 2013 (مسقط)

الناشر:



بيت الغشام للنشر والترجمة

مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير

(سلطنة عُمان – مسقط)

للتواصل:
alghshamoman@gmail.com
هاتف: 98889342 - 99260386
ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320
www.altakween.com

اللوحة للتشكيلي العماني: أحمد المشيخي

تصميم الغلاف :

أحلام بنت محمد الرحبي



رقم الإيداع 183 / 2013

إلى

أبي وأمي

شكراً على المحبة اللانهائية

# الفهرســـت

# أزرق للحزن

زرقاء وحاقدة، هكذا كنت أفكر وأنا أقود سيارتي مخترقة قوانين السرعة والإشارات الضوئية والحزن الذي يسبقني، زرقاء وحاقدة تماما كزرقة نوافذ سيارتي العاكسة للضوء، المانعة للحرارة، الباردة كمكعبات السكر المذابة في قهوة راكدة، حاقدة وباردة كنصل خنجر نازف.

لن أذهب إلى الطبيبة بعد اليوم، لن أنتظر في طابور لا ينتهي، لن أكشف عن بطني لتدهنه بمرهمها اللزج، ولن أرى فراغ رحمي ثانية على الشاشة.

قالت الطبيبة:

- مع الوقت والمحاولة ستكون الفرصة أكبر.

أجبتها

- هراء ..................

في المحاولة فقدنا القدرة على الحب، الحب الذي بدأ يتعلم لغته قطعنا لسانه وعلقناه من عقبيه وأفرغنا حقدنا في تفاصيله.

- سأبحث عن رحم يحمل ولدي.

- وإن ضاقت بك الأرحام.

- لن تضيق بي الحيلة، سأجد أرضا تستقبل مطري وتربو لي.

- وإن ضاقت، وأصبح الولد أكبر من رحم يحمله.

- سأغرس جبهتي في صدرك، وأبكي.

- وإن ضاق صدري؟

باردة وحاقدة كغمام لا يمطر. سيتزوج من تحفظ له الاسم، سيترك البيت ليبني لها غرفة.

تقول أمي:

- يا مجنونة ، لن يرجع.

- فليكن.

- وقلبك الذي ما رق لغيره يوما.

- سأقسو عليه وأعلمه حيلة الصمت.

- وإن ضاق بك صمتك.

- سأغرس رأسي في وسادتي.

- وتطلقين صرختك المعتادة، محصورة بين وجهك .....

- والوسادة ... الوسادة فقط.

سيتزوج، سيبني غرفة وسيصنع للطفل سريراً، ستطرح الأرض الخضراء تفاحاً أحمرَ ورماناً.

يقولون ،،

زف إلى صبية بلون الحنطة، شعرها ليل من الأسرار، وعيناها سبحان الخالق بحر ظلمات لا ينتهي.

يقولون ،،،

ثامن إخوتها، عودها قوي وحوضها باتساع المحيط.

يقولون ،،،

اهتزت الأرض وربت.

يقولون ،،،

أصبح لعلي ظل ممدود، وكف ناعمة ترقد في خشونة كفه، أصبح لعلي قدم صغيرة تدب ، وامتداد بعمق الزمن.

وأنا أتحايل على وجعي، أصغي ولا أصغي، والريح تذروني وأنا أنتظر.

وجاء، شرب معي فنجان القهوة

- لقد اشتقت لقهوتك.

- والقهوة اشتاقت إليك.

- كعادتك ..... تغلبيني بالكلام.

- وتغلبني أنت بالحركة.

- صار لي ولد .... ولد صغير يشبهني.

ناولني صورة الطفل، الطفل وجه أمه وأبيه، تأملت انعكاسي في المرآة، الطفل وجه أمه وأبيه، قلت في داخلي.

أردت أن أقول له أنه لا وجه لي، لكني كتمت اختلاط الحزن وأكملت قهوتي.

- أريد أن أقضي ليلتي هنا.

- وهناك؟

- هناك متسع للجميع.

- لا يوجد اتساعٌ لكل هذه الوجوه.

- قلبي يتسع للجميع.

- لكن فراشي ضيق لا يتسع لأكثر من جسد واحد.

- توقفي عن أذيتي ....

- كيف أؤذيك؟ وأنا مصلوبة هنا كجذع النخلة الميتة.

- يؤذيني صمتك ... يقولون كيد النساء وأنت صامتة منذ رحلت، صامتة لا تتحركين خارج حيزك المعتاد، لا تسألين ولا تنتظرين إجابة.

- انتظرتك طويلا.

- بسلبية .. سلبية مطلقة، ألا تغارين ؟؟؟؟ ألا تحبينني ؟؟؟؟؟

كيف يصبح الحب عذرا لإباحة الوجع، وإراقة ماء الروح التي لا تشاء الانكسار؟ كيف يصبح الحب ارتدادا للخلف، ارتدادا عقيما للخلف؟

- يؤلمك أن لا أحبك.

- يؤلمني أني لم أزل أريدك.

- ويؤلمني أني لا أستطيع أن أتعاطف مع رغباتك.

- لكنك زوجتي، وفراشك جزء من حقوقي.

- لم أحرمك منه، لكنك اخترت فراشا آخر.

- خشيت حزنك، هذا الأزرق البارد كالصقيع.

كثقب أسود كان حزني يبتلع الكلام، وكان الكلام حزناً يبتلع المعنى، وكنت أريده أن يقول، يقول كل الكلام الذي لم أقل ..

# البريســـــم

تجلس وقد أسندت ظهرها إلى الجدار الأبيض، وبين أصابعها خيوط البريسم* تحاول فتله، تبلل أطراف أصابعها باللعاب وتحل عقد الخيوط الواهنة بتأنٍ.

يداها اللتان أرعشتهما السنون تثبتان عند لمس خيوط الذهب، تعملان بدقة وتأنٍ، وعندما تنتهي تعقص الخيوط في ضفائر غليظة، وتلفها في خرقة بيضاء وتودعها المندوس* ثم تعود الرعشة تمس أصابعها.

أخبرتها الزطية * التي كانت تقرأ الرمل ووجوه النساء الوحيدات في الدار أنها ستدفن أهلها وكل من تحب، كانت صغيرة وكانت ضفائرها المخضبة بالياس* وماء الورد الجبلي تلمعان حول رأسها، ولكن الخوف الذي أورثته الكلمة سكن جفنيها وأسقط من عينيها الدموع، وعندما سألتها أمها عن بكائها أخبرتها بما قالته الزطية، فطمأنتها وقالت:

-الأعمار بيد الله وليس بيد زطية النحس.

---

البريسم: خيوط من الحرير تستخدم للتطريز.
المندوس: صندوق من الخشب المطعم بالنحاس يستخدم لحفظ الملابس
الزطية : الغجرية.
الياس: نبتة ذات رائحة قوية تستخدم لتطييب الشعر

لكن الخوف التجأ إلى عيني الأم حتى ماتت. ارتعشت يداها و هي تغمض جفني أمها، أسدلت حزنها وقالت:

- علّ الزطية على حق.

وعندما مات أبوها في فراشه دقت صدرها وقالت،

- علّ الزطية على حق.

ويوم دخل بها ابن عمها سال دمعها والدم، ثم شقت وجه النهار بضحكة وصرخة، فخرج سعيد وسيف وسليمة، ألهوها بضحكهم حتى اطمأنت، واطمأنت حتى نسيت ويوم أن نسيت غيب الجب سليمة، فشقت جيبها وقالت:

- علّ الزطية على حق.

لكن أبا أولادها طمأنها وقال الأعمار بيد الله، وعندما لدغت الأفعى سيفاً، انكبت على جرحه تمص السم، سيف هلك ، فلطمت خدها وقالت :

- علّ الزطية على حق.

سعيد الذي ختم القرآن ولزم الإمام، مسح على جبينها وقرأ في أذنيها بضع آيات، وقال " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا "، فعضت على شفتيها،

ويوم سقط أبو أولادها تلهبه الحمى في فراشها سقته الدواء، وعندما نفض عنه الكرب، ضحكت وأحلت الفرح، فأمرت سعيداً بذبح الشياه وتفريق الصدقة، فجرحته السكين ومات، قالت لزوجها:

- الزطية على حق، فاتركني وارحل.

فضمها إليه وقال:

- الغيب لا يعلمه إلا الله.

وحينما رجع من السوق ناولها قرطاسا فيه خيوط البريسم وقال،

- خيطي لي كمة *البسها في العيد.

فشغلت صباحها بفتل خيوط البريسم، وتضفيرها، وقبل أن تبدأ بغرس نجيماتها * حمل الرجال على أعناقهم جسده وأسكنوه حيث أمها وأبيها وأطفالها.

أهلَّ هلال العيد، ونجيماتها ما زالت مختبئة في صلب البريسم الذي ما فتِئت تفتله.

---

كمة: غطاء الرأس للرجال

نجيماتها: تصغير نجمات ومفردها نجمة هي وحدة التطريز في الكمة.

# المظـــلة

دخلت البنت على أبيها ذلك المساء لتطلب منه ريالا تبرعا للمدرسة، وجدته جالسا وفي يديه فنجان قهوة مهمل فجلست عند الباب، اختلست النظر إليه لتتعرف على أحواله دون أن ترفع رأسها، بعد مدة أحس أبوها بوجودها فدلق القهوة دفعة واحدة في جوفه، وأشار إليها بالاقتراب.

- خير ؟

- أريد ريالاً، ريالاً واحداً فقط( وأكدت على فقط بضم السبابة والإبهام).

- لماذا، هل سيبيعونكم الكتب هذه السنة؟

- لا ، الكتب توفرها الحكومة، لكن المدرسة تحتاج لمظلة.

- مظلة؟ وهل ستبتل المدرسة ؟ ثم أنها لا تمطر!

- مظلة للطابور، الشمس حارة، وكل يوم تسقط منا واحدة أو اثنتان.

- لماذا لا تقوم الوزارة ببناء المظلة.

- تقول المديرة إن الحكومة بنت المدرسة وأعطتنا الكتب ووفرت المدرسين.

- ولا تستطيع إنشاء مظلة ؟؟؟؟

- قالت المديرة أننا نؤدي خدمة للوطن.

- خدمة للوطن بريال!

- خدمة سهلة، صح يا أبي؟ ورخيصة!

تمتم " صح" وهو يخرج محفظته من جيبه، ويستخرج الريال الوحيد الذي كان يعول عليه لبقية الأسبوع، أعطاها الريال دون أن ينظر في وجهها خوفا من أن تطلب ريالا آخر تبرعا للحكومة لإنشاء فصول لمحو الأمية.

ابتسم وهو يراها تخرج مسرعة، تكاد ترتطم بالباب من شدة الفرح، لكنه تذكر محفظته الفارغة المنسية بين أصابعه، فألقى عليها نظرة حاقدة، ودسها في جيبه، وهو يردد "صح يا أبي".

في المساء سمعت البنت وهي شبه نائمة صوت أبيها يأتيها من الغرفة الأخرى، وهو يخبر والدتها عن الريال والمظلة والوطن واللصوص، والراتب الذي لا يكاد يكفي لحاجات البيت والأولاد الذين يكبرون بسرعة.

في صباح اليوم التالي كانت تقف في آخر الطابور، وكان العلم الذي تحييه كل صباح بعيداً جداً، لكن صوتها كان يخرج قوياً وهي تردد مع المدرسة " تعيش، تعيش ، تعيش " ثم مع المدرسة أيضا "يعيش ، يعيش، يعيش " وتفكر أن عليها أن تكبر بسرعة وترفع العلم بيديها ثم تردد المدرسة خلفها "

تعيش سلطنة عمان حرة ".

تحسست الجيب الذي دست فيه الريال، واطمأنت إلى وجوده، حتى إذ ما بدأ الطابور في الانزلاق إلى الصفوف تحسسته ثانية، ثم وحتى تثبته في مكانه، دست يدها في الجيب وقبضت عليه.

دار الدرس في الحصة الأولى حول الزكاة، وحق الفقراء على الأغنياء، ثم وفي الحصة الثانية دارت حصة التربية الوطنية حول معنى الوطنية وحب الوطن والتضحية لأجله، وفي حصة الرياضة دخلت وكيلة المدرسة لجمع الريالات، لكنها قبل أن تفعل ذلك، قالت:

- التبرع لإنشاء مظلة عمل وطني، وعليه فقد قررت المدرسة أن تمنح لكل متبرعة درجة كاملة في الرسم والتعبير، مكافأة لكن على حب الوطن.

بدأت في جمع الريالات التى امتدت بها أيدي البنات، وعندما جاء دورها تحسست ريالها المندس بين أصابعها في جيب المريول، ثم أخرجت يديها فارغتين وأجابت بهزة نفي من رأسها وهي تنظر مباشرة في عيني الوكيلة.

# الآخــــذون

تغرب الأشياء، تنسحب بعيدا إلى منطقة ما بعد الظل وقبل الضوء، هنالك حيث تبدو الأشياء أكبر ... أصغر .. أو تمّحي.

- كم الساعة؟

- نسيت ساعتي في البيت.

- هذا دليل تمرد جديد، لأن نسيان الساعة ، يعني عدم الاهتمام بالوقت، وعدم الاهتمام بالوقت يعني أنك غير منضبطة في مواعيد الحضور والانصراف، يعني غير مكترثة بقوانين الخدمة، أو بالقانون بشكل عام، مما يشي بوجود بذرة تمرد، تمرد على الوقت، على النظام، على ...

ها أنت ذا تقبض على ضفائري، وأنا أصعد الدرج ورأسي مائل إلى الوراء، ضفائري الهابطة حتى الأرض تكنس عتبات الشفقة بالوهم، وأنت تستثمر صبري إذ تقبض عليها بغلظة، تتسلق عقدها التي تنحل بين يديك، بغلظة أكبر تقبض على العقدة التالية حيث ضممت الحرير والعود وأوردة الريحان، ورأسي المنشق عن التفاتة غريبة يشي بما يزيد عن الألم؛ الحب مثلا وربما الكراهية.

لا أحاول الهرب فها أنت قد وصلت إلى جذر الشعر ورأسي المائل إلى

الخلف مجتث من مكانه ومتدل كابتسامة هازئة.

الآن أنا تحت سيطرتك، تدوس علي، بنعلك المغبرة تهرس عيني وأذني، لكن لساني يباغتك بالشتيمة، فترفس فكي لأبقى معطلة عن الكلام.
تستوي على الأرض، يفرحك الضوء، فتضحك وترقص، تشد ضفائري الملوية حول رسغك فتسحلني وراءك أحس بالجلد يلتصق بالتراب لينبت في فجواته دود كثير وأنت تركض في الاتجاهات الأربعة، تحاول القبض على خيط الشمس المتداعي.

الجثة أنا، وأنت تجلس معي عند شجرة ، تسندني على جذعها وتمسح الدماء عن شفتي ، تعيد عيني إلى مكانها وتسوي أذني، وتفتش عن الدود تحت جلدي، تهمس أنك تحبني وأنك تريدني زوجة، مدللة ومطيعة، وأنك سترجع ذاكرتي الخائنة وتحفظ لي اسمي.

- قولي ما تريدين ما دمت بين جدران غرفتك، لكن في الخارج احذري من الصديق قبل العدو ومن نفسك قبل .....

تسكب الماء على جسدي ، تغسلني بالحناء، تفرك وجهي جيدا وشعري السابح تحتي يتهمك بالأذية فلا تأبه، تحشو القطن في أذني، ومكان عيني المتدلية، وفمي تحشوه جيدا بالقطن الناعم.
- كلنا كنا هنالك يا ابنتي، وكلنا رأينا ما حدث، لكننا لم ننطق بكلمة. كانت نظراتهم تتربص بنا، تعاهدنا على الكتمان إلا أنت، هربت من الغرفة

وتسلقت شجرة البيذام، وقبعت بين تلافيفها حتى الفجر.

وعند الفجر حملت حقيبتي وأقلامي ودفتر الإنشاء وكتبت قصة لمدرسة اللغة العربية.

- هذا كلام به الكثير من العنف ولا يناسب رقة عودك، ربما لو تكتبين عن الطبيعة، عن أمنا النخلة مثلا، عن إجازة الصيف، عن الكورنيش، ربما لو كتبت قصة حب بريئة.

أترك الأخصائية الحائرة في تفسير لون المداد الأحمر المسكوب على كراستي، وبقعه المنثورة على الأرض، وأخرج أبحث عن النخلة في أقصى الحوش، وأدفن في ترابها وجهي.

تقول أمي وهي تمشط لي شعري:

- عندما تكبرين وتزهر حقول الثمار في جسدك ستحملقين لساعات في انعكاس ماء البحر وستبحثين عن رفيق يساعدك على جني الثمار ويحفظ روحك من الضياع.

- وهل سيمشط لي شعري كما تفعلين؟

- نعم.

*البيذام : شجرة مثمرة لها ثمر كحبات اللوز

- وهل سيسكب العود والمسك في مفارقي؟
- نعم ، وسيحني قدميك الصغيرتين كأوراق اللوز.
- وهل ستنبت لي الأجنحة؟
- الأجنحة لا تنبت للبنات!

وأنا أحس بالزغب ينبت أعلى كتفي، فأسقيه زيت اللوز، وأرعاه حتى يكبر، ويفرد نفسه على ذراعي، ويصير ريشا أبيض لامعا وقوياً، أمسده حتى يكتمل، وأقذف نفسي من الكوة الضيقة أعلى الدار وأطير.

- احذري ألف مرة وأنت تدسين الكلمات في الثغور، اضبطي الوقت وفجريها عن بعد، لا تعطيهم دليلا ضدك، احرقي ريشك إن لزم الأمر.
- إن لم تتوقفي عن الكلام سيحرقون وجهك بماء النار، ويقطعونك إلى مكعبات صغيرة قد تصلح لأسياخ الشواء، وذلك لن يتم إلا بعد أن تنجبي لهم الكثير من اللقطاء.

تشعل النار بحفنة من أوراق الشجر اليابس وقطعتين من الحجر البركاني الأبيض، تبخرني بالخشب المتكسر، تحكم الغطاء حول رأسي، تمحو خيط الدم حول شفتي، ولا تكف عن دغدغتي وانت تمرر يديك تحت جناحي، فتزهر ضحكة مفرطة في الفرح تسابق رئتي، لكنها لا تخرج، وعيني الناضحة بالهدوء تسألك عن الوقت فلا تجيب، هنا يبدو التراب تحتي أكثر دفئاً وأتذكر أني ميتة.

# اسطـــرلاب *

" فلنوغل في البحر "

قالها وهو يشير إلى الدب الكبير متجهما في السماء،

"ولتنشر القلوع فالريح معنا "

يدرك اللعبة تماما ، يعرف دربه في متاهة الماء، يروض الريح لأمره وله تابع في الأفق، له السماء ودرجة الانحراف.

عندما اطمأن القبطان العربي للريح، وحدد موقعه، بشر زميله باليابسة، وأشار إلى البعيد، ورغم أن اليابسة لم تلح في الأفق إلا أن زميله ذا الرأس الأصهب ابتسم.

على خريطته رسم القبطان الأبيض تعرجات الساحل، واحتفى بتقلبات الريح، وفي زاوية الخريطة رسم اتجاه الشرق والغرب وأسهم الشمال والجنوب.

---

* يقال أن ابن ماجد لم يكن هو من عبر بفاسكوديجاما رأس الرجاء الصالح ، لكن هل ذلك مهم حقا ؟؟؟
اسطرلاب : جهاز لقياس مواقع النجوم.

لم يجلب البرتغالي معه إلا الخرز ليقايض سكان الممالك السوداء الذهب الذي ينبت في عروق ترابهم، والذي احتاجته " لشبونة" لسك نقودها ودحر "جنوة". توغل البرتغالي في الماء ففض جزر النارجيل واغتصب الفلفل والقرفة، وعندما رجع إلى بلاده احتفت به الموانئ وضحكت له الأرصفة.

رجع القبطان العربي إلى بلدته مخلفا عند موته بيتا من الشعر وخنجرا علاه الصدأ، وترك دخان المدافع على أرض الخريطة.

# رقص

كنا ثلاثة، أنا وطارق وبدر نجلس في الحانة على الطاولة ذاتها، التي سبق وجلس عليها سيف ومحمد وعبدالله وخالد ومحمود وسالم وحمد وسعود وفيصل، لا، فيصل لم يدخل هذا المكان من قبل، بل كنا نلتقي في مقهى صغير شاحب، يرتاده لشرب القهوة السوداء وتدخين سيجارته اليومية.

اقول كنا ثلاثة، أنا أشرب مياها غازية، طارق علبة البيرة الأولى، بدر يدخن سيجارته بشرود.

لم تكن هناك رغبة في الحديث، بدا كل شيء راكدا، ابتسامة النادلة البلغارية، صحون الفول السوداني، الوجوه المعلقة في فراغ المكان، وحتى ألوان الزجاجات على الرفوف الخلفية، بدت باهتة ولا علاقة بينها وبين الرف والساقي.

ربما كنا ننتظر شخصا ما لينقذنا من كسل الحوار، شخصا يثير قضية، أي قضية لا يهم، حتى لو كنا تداولناها من قبل وقلبناها ساخنة وخضنا فيها حتى يبست ، القضية غير مهمة، المهم الحديث، الخيوط التي تقودك عبر تعرجاتها لاكتشاف جانب آخر ربما لم يكن خفيا، ثم ذلك التسلل إلى ساحة نقاش أخرى وقضية مختلفة، ثم نختلف، نعم مهم أن نختلف، وكما يقول فيصل المليء بمرارة فناجين القهوة ان الخلاف وحده وربما الصراع هو غاية أي

نقاش محتد، عندها ستبدأ الليلة في خلع سترها.

وصل رابعنا، شد الكرسي قبالتي وجلس، كعادته لم يلق التحية، بل اكتفى بابتسامة فارغة من عينيه الضيقتين، وهز رأسه للنادلة وطلب كأسا من الفودكا، ثم التفت إلى طارق وعبر عن ازدرائه لصنف البيرة التي يشربها ووصفها بأنها " بيرة سوّاقي التكاسي ".

كان يعرف أن تعليقاً كهذا سيثير نقاشا من نوع .....

- وما العيب في سوّاقي التكاسي؟
- سوّاقو التكاسي هم أيضا من مستحقي المتعة المرخصة.
- الفودكا الروسية هي الشراب الحقيقي، أما البيرة وخلافه فهي شغل حريم.
- «حريم ؟؟ وانت من أول قوطيين تبول تحتك ؟؟»
- ثم ان سوّاقي التكاسي أشرف من روسيا، يكدون طوال النهار ويشربون بعرقهم طوال الليل، ولا ينتظرون مساعدات ويمسحون أحذية الأمريكان.

لكن بدراً الذي لم يطلب شرابه بعد، والغارق في دخان سيجارته، بدء بدندنة لحن أغنية حزينة، فيسكت الجميع، ثم يبدأ في الغناء في صوت مشروخ، يردد الشباب وراءه بعض المقاطع ويشتمه آخرون، حينها قد تطفر الدموع من عيون معلقة في وجوه ثملة، أو يجهش بالبكاء من بدأ شربه باكرا تلك الليلة وفاضت همومه.

عندما يتوقف بدر عن الغناء ، يسكن البار للحظة، ثم يبدأ صخب الحديث ثانية، هنا رأيت فيصلاً وقد سكب فنجان القهوة الثاني على جريدته المفروشة على طاولته في أقصى المقهى الشاحب، ورأيته قد بدأ في النحيب بصوت منخفض يعلو .... ويعلو ....

أما رفيقنا الرابع الذي لا يحب غناء بدر، ولا حزنه، فإنه اول من يبدأ في الحديث عن قضية ساخنة تأخذ منحى جديا يختلط هزلا ثم يسير إلى حيث يجب أن ينتهي.

أقول صرنا أربعة وبدر لم يطلب أي شراب لكنه التهم دخان علبة كاملة من السجائر، وطارق أجهز على خمس زجاجات بيرة كاملة، وأنا لم أشرب إلا زجاجة مياه غازية، وقضيت الوقت مترددا بين بيرة سائقي التكاسي والفودكا الروسية، أما رابعنا الذي اكتفى بالفودكا فقد كان نجم الليلة ، راقصاً من الدرجة الأولى، انتقل ما بين عدة مواضيع، منزلقاً بين الطاولات الصغيرة وصحون الفول السوداني، متخطيا أجساد الآخرين وآراءهم، كان الضوء وظله كان العازف والمنصت، كان هو الجسد والفراغ ، وربما لم يكن شيئا من هذا، إلا أنني لمحت عيني فيصل الجالس في المقهى تفيضان بالقهوة التي انسكبت عبر ثغرات الطاولة ولونت بياض الأرضية بالسواد.

# رائحة لا تشبه أحدا

تبحث في الدار عن بقايا البارحة، رائحته، جمر لم ينطفئ وربما قليلا من مرق القلية*، ثلاثة أفواه تبحث عن شيء غير الحب تقتاته، ورابع يعد العدة للخروج متسللا دون ضجيج، تنوء بحملها، تتكسر على الفراش، تبعث في طلب الجارة، يخرج رابعهم دون بكاء.

- ولادة سهلة

- بلا ألم، أو لهفة.

- بنت بعد ثلاثة أولاد.

- بالحمد تمتمت التي حملت بطنها تسعة أشهر ثم أغمضت عينيها واستسلمت لملائكتها، في الحلم رأته يوزع رائحته على النساء يهب لهن منه حفنة، وعندما مدت يديها أخذ وجهه والرائحة، أحست مكان الثقل بخفة وحل محل القلب خواء.

أسمتها مريم، كاسم امها وعندما تغامزت النسوة على لون عينيها اللتين تشبهان خضرة الشجر، حملتها على خاصرتها وأغلقت بابها، ولم تشرب القهوة معهن ثانية.

تعلمت مريم المشي بسرعة، تمسك بأصابع أخوتها وتنهض عجيزتها الصغيرة عن تراب الحوش وتخطو باتجاههم خطوة صغيرة، خطوة صغيرة تخطو ثانية وتتعثر، يضحكون، وتطفو عيناها بخضرة الحمد *.

---

القلية: لحم مقلي يحفظ بالتجفيف
الحمد: طحالب خضراء تنمو على جوانب السواقي أو في قيعان الأحواض

كان الثلاثة يرقطون الخلال * من الضاحية *، وأمهم منكبة على ماء الورد تخمره حين دخل الدار وأسقط من يديه خرقة السفر ورقد إلى جوارها، أنبأتهم رائحة الورد وعصفور نقر الخلال بمنقاره ثم لفظه بعودته، ركضوا ومريم المتعثرة بخطواتها الصغيرة ركضت معهم.

في الدار ضمهم إلى صدره وشم رائحتهم، عند الباب وقفت مريم ترقب امتداد الشوق إليها وقفت طويلاً حتى أبصر ظلها على الحصير ، فتح ذراعيه وضمها ، شمها طويلا ، رفعت إليه عينين بخضرة الخلال.

وعندما اختلى بالمرأة سألها :

- لم تفرغي رائحتي في رحمك؟
- بلى
- والعينان لمن ؟
- العرق يمد لسابع جد.
- لاشئ غير السمرة فينا.
- لم أحمل إلا رائحتك.
- والعينان لمن ؟

الخلال: حبات الرطب قبل النضج
ضاحية: مزرعة صغيرة مزروعة بالنخيل

خرج من الدار، طرق بيوت الأخوال والأعمام، سأل النسوة من أين أتت بالخضرة التي زرعتها في عيني البنت؟

شهد الجميع بسواد عيونهم من جد إلى جد، نقية دماء القبيلة لم يخالطها لون يقول الجد وهي بنت عمك، لكن ربما ... ربما ... ربما ماذا؟ دار من دار إلى حتى شق كعب التيه.

- العرق يمد لسابع جد.

وسابع جد لا تعرفه الروايات ولا يعلق بالذاكرة، وزوجته النقية كماء الغيل*، والطاهرة كرطبات الخنيزي * لم تحمل إلا رائحته.

في الخيمة رقدت، أضجعت خوفها وصمت عيونهم المحدقة ومريم التي سقت أمها رشفة الماء قبل أن تغمض عينيها لم تدرك أن الظلمة حلت وأن أباها لم يعد بعد، واخوتها المحدقين في سؤال إلى الأم لم يقذفوها بحبات الخلال.

---

الغيل: الماء المتبقي في بطن الوادي بعد جريانه بمدة
الخنيزي: رطب أحمر شديد الحلاوة

في الحلم رأته يوزع رائحته على النساء وحين مدت يديها، أخذ رائحته ومضى.

عندما سرقهم النوم من وجع الانتظار، عاد واقتعد النخلة، لم يدخل الدار ولم يتحسس أجسادهم المتناثرة فوق السجم *، ولم يبحث عن رائحة مريم التي لا تشبه رائحة أحد، اقتعد النخلة وحملق في القمر الذي أعار فضته لماء البئر، فكر في الجد السابع الذي لا يتذكره أحد، العرق الذي يوغل في السفر، وخضرة عيني مريم.

في الحلم رأته يزرع بطن الوادي بالقت *، في الحلم رأته يخلع رائحته على الحصى ويعطي كل امرأة حفنة، في الحلم مدت إليه يديها.

---

السجم: بساط يصنع من سعف النخيل ويجدل بالحبال ، يرفع على قوائم قصيرة ويستخدم لتجفيف الرطب تحت الشمس وصنع التمر

القت: البرسيم

# هــــنّ

تتصاعد الموسيقى خارج نافذتها، يرجف قلبها مع دقات الطبول، أقدام الراقصات تطأ قلبها وهنّ يدسن على منابت الأشياء، عرق الأكف المصفقة والضاربة على الجلد الرقيق المشدود تملأ خياشيمها، الليل يخلع على الصوت حلة من اللانهائي والمجهول.

هنّ يدرن حول أنفسهن، يمعنّ في ضرب الأرض بأرجلهن، ضربات خفيفة تزداد قسوة مع تصاعد الضرب من الأكف السمراء على الجلود الرقيقة المشدودة، تحس بالعرق كجلد ثان. تنفخ الضوء في المصباح، تخلع ملابسها فيتحد بياضها بالظلمة، تدخلها الموسيقى عبر المسام المتعرق، تدق بقدميها أرض غرفتها، وتزداد قسوتها على الأرضية كلما ازداد صخب الطبول.

أحست بالسفن المبحرة تجتاز جسدها نحو الموت المحتمل، رأت بوضوح وجه أبيها طافيا على ماء الوضوء، وجه أمها الذابل من فرط الظل، وعيون أخوتها الراصدة في شقوق الدار.

الموسيقى في الخارج تزداد صخبا وأكف الرجال تزداد اضطراما، وهنّ يزركشن سوادهن باللون ويلتحمن بالريح الخفيفة وينتشرن، هي ترقص على صوت الطبول البعيدة . هنّ في الخارج حيث الريح والبرد وزغب البدن المنتصب، هي في الداخل تتخيل النشوة.

على الأرض تكومت، ملابسها الناعمة تناثرت حولها، الطبول اختفت. أحست بالدم النابض في عروقها يسكن، وحلقها يجف، والرعشة تغادرها ببطء.

تذكرت حين اهتز جسدها في المرة الأولى للطبل، حبستها أمها بين جدران غرفتها يومين كاملين وحذرتها:

- لا تقلدي الجواري فاقدات الحياء.
- لكني عندما ارقص أتفجر بالحياة.
- بنات العرب لا ينكشفن على الليل.

والليل في الخارج يغويها طبله، وهي تسعى بدمها لدقة الخلخال، وصوت الريح يعبرها.

- هل لهن أجساد تختلف؟
- أجسادهن ليست لهن.

تلملم جسدها وتعيد ترتيب ملابسها عليه، تخفي نفسها في طيات الثياب، تحبس خفق روحها، وتلمس خلخالها الصامت، وتحلم بهنّ في الخارج يعدن توزيع الريح على الجهات الأربع.

# ارتطام

أحبه،

إنها تمطر في الخارج، أراقب قطرات المطر تتناثر على زجاج النافذة العريضة، وتلتقي لتكّون عروقاً تمتد لتنسكب عند حد النافذة وتفقد شكلها، أكاد أجزم أن رائحة المطر تعبق في الخارج وقد تتسرب إلى الداخل، لكني أراقبها من خلف الزجاج وقوالب الإسمنت، وأحاول بكل بلاهة ربط الصور بالرائحة، والرائحة بالأمكنة ، وأنا بها كله، أغمض عيني وأحتسي الرشفة الأولى من الشاي.

لماذا أحبه؟

عندما استيقظت من نومي هذا الصباح لم تكن لدي الرغبة في الذهاب إلى العمل. ما أجمل أن أبقى اليوم في فراشي وأتقلب وأتمطى وأغير ترتيب وسائدي على السرير وترتيب رأسي على الوسائد. أضع رأسي عليها، أو أضعها على رأسي، ربما تحت قدمي، ربما أحضنها لدقيقة وربما إذا ما شعرت بالضيق أرمي بها لتسقط على السجاد الأبيض، وربما سأنزلق معها إلى الأسفل وأضع رأسي عليها، أو حتى أحضنها مرة أخرى، هذا الدفء اللذيذ يهيء الوقت للفرح.

هكذا أحببته،

في الشوارع تنزلق سيارتي على الإسفلت فلا أجد إلا البهجة لأحتمي بها من خوف المفاجأة، وأنا أراقب الكورنيش الغائم خلف نافذتي والسيارات المبطئة أمامي، تندلق رشة من موج البحر على نافذتي الأمامية، تباغتني، فأرفع قدمي عن الكابح، وأكاد أرتطم بالسيارة التي أمامي، أستعيد رباطة جأشي وأبتسم لترتفع ضحكة صغيرة في روحي. أفتح نافذتي لهواء البحر ورذاذ الماء وأتمنى لو أني كنت نورسا مبلل الريش.

لأني أحبه،

كان لابد من المشي على الماء، البرك الصغيرة التي صنعها المطر تملأ تعرجات الدرب وانخفاضاتها. أحمل حقيبتي تحت إبطي وألملم ذيل ثوبي بين أصابعي. الماء المتسرب داخل حذائي يحدث صوتا كنقيق الضفدع كلما دست على رخام الممرات، حذائي يترك بصمته البنية على السجاد الباهت، الماء الراكد بين أصابع قدمي متعة في حد ذاته ويبعث فيّ الرغبة في المزاح.

أحبه،

لن أفعل شيئا هذا المساء سوى الاستلقاء على هذه الأريكة، ومراقبة

الغيم المنعقد أعلى الجبل، ولن أبدل الأسطوانة، بل سأترك الموسيقى لتعلق بالغيم ورائحة المطر، وسأنهي كوب الشاي، وقد أحتسي كوبا آخر، وسأقرأ رواية جديدة لكني لن أنصت إلى الأخبار، ولن أرد على الهاتف، ولن أفتح الباب لأحد.

وعندما يأتي الليل ويختفي الأفق سأغمض عيني وألعق المطر العالق بشفتي وأحاول القبض على لحظة ارتطام قطرة المطر.

# وشيجة اللون

ربما كان الوقت مبكرا جدا للتأكد من صمودي.

لم تكن رؤيتي لك مصادفة، كنت أعرف أنك ستكون هناك وكنت أعرف أيضا أنني لن ألتفت صوبك .. مصممة على تجاهل نظراتك .. والاختفاء .. الاختفاء ........ الاختفاء.

غاضبة أنا ؟؟؟؟ لا ... لست كذلك !!!

لكن هذا ما ستعتقده .. خيالك لن يذهب أبعد من ذلك، والرهان على ذاكرتي التي أتمنى أنها لم تزل تحتفظ بالتفاصيل.

لقاؤنا الأول، مناسبة مثل هذه لكن المكان كان أكثر اتساعا. من بعيد رأيتك، من بعيد رأيتني، عرفتك وعرفتني. " من أين أتتك الجرأة حتى تقترب مني وتقدم نفسك لي؟ من أين جاءتني الجرأة حتى أعاملك كصديق قديم ؟"

لحظات وتلاشيت في زحام الوجوه، ومن بين الحضور ثانية باغتني بنقرة على كتفي:

- هل تحضري " السلايد شو " في القاعة المجاورة بعد الغداء، أعدك ألا يكون مملاً.

واختفيت، كفكرة خادعة تومض للحظة ثم تختفي.

أختفي أنا في تفاصيل المكان المبالغ في أناقته، أختفي في زخارف السجاد الفارسي الوثير، أختفي في وجوه الأخريات، في شفاههن، في كحل عيونهن، في الكراسي، كل تلك الكراسي الحمراء التي تملأ المكان، ربما كنت أسال نفسي من أين يأتي الأحمر ؟ كل هذا الأحمر، السجاد الفارسي، شفاه البنات، الكراسي، لون الجدران المؤطر بالأسود، من أين يأتي الأحمر؟

لم يكن العرض مملاً، تتنقل ما بين الصور المنعكسة على الجدار ووجوه الحضور، كلامك مفهوم، لكنني كنت غائبة تماما، مشغولة بالأحمر الذي يصر على النمو في تفاصيل المكان.

وانتهى العرض، اختفيت ثانية في الممرات المبطنة بالمخمل والخشب، في روائح العطور الرجالية الحادة، اختفيت في نظرات الآخرين وتعليقاتهم، اختفيت أنت ....... اختفيت أنا ...

عندما اتصلت بي أول مرة، لم أسالك من أين حصلت على رقمي،

استرسلنا في حديث عن كل شيء ولا شيء، كررت اتصالك، صرنا نحكي ونحكي.

هل تعرف كيف ؟كيف تغربنا كلماتنا إذ نستخدمها في رسم وجوه أخرى لنا؟ كيف أضع الحروف بتسلسل معين حتى تبني كلمة كل هدفها هو تضليلك؟ كل هذا العناء فقط كي تطول المحادثة ويبقى صوتك عالقا في ثقوب السماعة. كنت أريد صوتك على الدوام ، بحاجة إليه، لينفذ عبر مسام جلدي ويرطب روحي.

وسافرت، قلت لي أنك مسافر لأسبوع، إلى أين كنت ذاهب ؟ اسطنبول، بكين أم كركاس؟ لست أذكر لكنك اتصلت من هناك، وأحسست أنا بلون أحمر منتش يفيض ... يفيض.. يصبغ أطراف أصابعي ، سماعة الهاتف، كلماتك، تخيلت كل الذبذبات حمراء زاهية ، حمراء متقافزة ، كان قلبي في تلك اللحظة يضخ دما أحمر، كلمات حمراء شفافة و خفيفة، حمراء، حمراء ....

وعندما عدت، حكيت لي عن حسنائك، أوه نعم، كنت في كركاس، وكانت حسناؤك الفنزويلية، هي موضوع حديثك، وكنت أصغي، محتفظة بوجهي خارج جرح الكلمة.

ولم ينقطع حديثنا بعدها، لكني زرعت بيننا مساحة من اللون البني، ذلك اللون الذي يشبهني، ترابي، محايد، لا هو ذكر ولا هو أنثى، لون خنثى كأحاسيسي حينها، إذ لم أعرف تحديدا كيف أتعامل معك.

وسافرت ثانية، لكنك لم تتصل، لابد أن البني ليس لونك المفضل، لكني لم أكن أعرف كيف أعاملك وظل امرأة أخرى يلوح في خلفية المشهد، كيف لي أن أنظر في عينيك، وعيناك لها، كيف يتقطر اللون الأحمر في الكلمات وأنت سكبت براميله عند عتبة دارها، لم أكن لأستطيع، ولم أكن أستطيع تكذيبك، أو تخيل أنك قد تكون مدعيا، لا يليق ذلك بك ولم تكن مضطرا له.

ورجعت، طلبت أن نلتقي وافقت، شربنا قهوتنا، وعلقنا على الحر الشديد بالخارج، تكلمنا عن العمل، عن رحلتك القصيرة، وانتهى الكلام، لم يعد هناك أكثر.

ولم أستطع تجاوز المرأة الأخرى، ولم تستطع أنت تجاوز العتبة التي زرعتها في الخطوة الأولى لتعارفنا، لذا لم يعد اللون الأحمر للاختباء في الفاصلة التي تعقب الكلمة، لم يعد اللون الأحمر أحمراً، بل إن اللون البني أصبح أكثر وضوحاً وصرت أشعر براحة عميقة في النقاط البنية المنتشرة بين الحروف والكلمات، بين الأسطر، في بداية الكلام وفي نهايته.

وسألتني لماذا؟ كنت في الحقيقة أستمتع بسؤالك، لكني كنت أستمتع بإجابتي أكثر، أستمتع بها إلى درجة اللذة الخالصة، تلك اللذة التي تحمل

لون الكراسي الحمراء، والجدران المؤطرة بالأسود، كنت أجيبك مدعية اللامبالاة، ملل، ملل، ملل.

وهانحن ذا نلتقي مرة أخرى بعد خمس سنين، في مناسبة شبيهة، وفي مكان شبيه، وهذه السنين الخمس التي حصدنا فيها لعبتنا ألما، وشوقا ومطاردة لا تنتهي، لم تنته بالوصول إلى أي شيء، دوائر كثيرة ضمتنا، ألتفت حولنا، والتففنا حولها. وأنا لست مستاءة، إذ لم يكن لدي في الحقيقة إلا الكلام، الكلام الذي رفض أن يخرج ليلامس الهواء ويتحول إلى شيء آخر، هو الكلام وحده الذي خلع لونه الأحمر ، وتمرغ في لون التراب البني، اللون الخنثى، الذي لا هو رجل ولا هو امرأة، مثل وضعي تماما، فلا أنا صديقة بالنسبة لك ولا أنا حبيبة، أنا فقط أتذكر، اللون الأحمر الكراسي الحمراء، والجدران المؤطرة بالأسود.

.................................................................

.................................................................

.................................................................

.............................................................

سأختفي الآن، سأختفي في كوب القهوة، أو خلف الخبير الإنجليزي الذي يحدثني منذ نصف ساعة عن ظاهرة التغير المناخي، سأختفي الآن قبل أن تخرج أنت من باب قاعة المحاضرات، سأختفي قبل أن أرى ظلك الأحمر

طاف على جدران غرفة الشاي البيضاء، سأختفي في المفارش البيضاء والكراسي المغلفة بالأبيض، سأختفي في كلمات الانجليزي وفي الأغصان المتشابكة التي تزين ربطة عنقه، سأختفي في مربعات الباب الخضراء والزرقاء والصفراء، سأختفي الآن قبل أن تراني. لأنك إذا ما دخلت الغرفة ورأيتني ستقترب مني وستلمس كوعي بحركتك الخفية تلك، وانا سأتجاهلك، ستعتقد أني غاضبة منك، وأنت لن تفهم ولا طاقة لي بشرح كل تلك التفاصيل.

لكنك تدخل من الباب الان، وتصبح قريبا جداً في مواجهتي، تحاول أن تسمر نظراتي المراوغة في عينيك، تحاول أن تلمس كوعي، لكني سأختفي في كوب القهوة الذي أحمله حتى لا تفيض مرارتي، وحتى لا أراك أحمر كالشفق إذ يؤذن بالغروب.

# صرير الأبواب المحكمة

الساعة الآن الحادية عشرة إلا ربعا، أبي أطفأ أنوار البيت وتأكد من إغلاق أبوابه، أسمع خطواته تصعد الدرج وبعد قليل بابه سيغلق، كعادته سينام عند الحادية عشرة على صوت المذياع بعد أن يضبطه على ذبذبات لندن، وها أنا ذا قد أنجزت سطرين من رسالتي إليك.

تعرف كم هي صعبة كتابة الرسائل، تماما كإعادة نبش قبور أهلنا الذين ماتوا والتفرس في بقاياهم ، لا تعترض، عن ماذا سأكتب لك؟ عن وحدتي، فراغي، أم عن الفقد المؤلم للصحبة، أم عن ذكرياتنا المهترئة، المستحثات التي جمعناها من بطن الوادي ، كعكة الزبيب التي تحب أو جلستنا في سيارتك نسمع عبدالحليم يضيء قناديله، لا، أنت هناك غارق في دراستك ووحدتك، وأنا هنا وحدي أصارع فراغ البيت الكبير.

الساعة الآن تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، كنت قد بدأت أنام عندما استيقظت على خطوات أبي تنزل الدرج وأصوات قرقعة الأبواب، هذه عادة جديدة اكتسبها منذ أن ماتت، يستيقظ عند الواحدة ويفتش على الأبواب، ثم يعود إلى فراشه.

تضاءل كثيرا منذ وفاتها، أصبحت شهيته للطعام ضعيفة جدا، وقد توقف تماما عن أكل اللحوم ولا يتعشى أبدا، أما حبات الشوكولاتة المغلفة بالبندق فما عادت تختبيء في أدراج خزانته.

لم أعد أحتمل صمته، تمر أيام كثيرة لا يعبأ بإلقاء أوامره في وجهي، ولا حتى تحيّة المساء، أشعر أحيانا أنها عندما ماتت أخذت معها أكثر مما يجب، ليس الصمت وحده هو ما يغيظني ولا تفتيشه المستمر على الأبواب، ولا توقفه عن مشاهدة التلفزيون معي وقت الظهيرة، وقد أكون قاسية بعض الشيء لكن توقفه عن مداعبة القطة أثناء جولته المسائية هو ما يقلقني.

قبل سفرك، كان مازال يقرأ جريدة الصباح، ويبتسم ابتسامته الماكرة تلك بين الحين والآخر وهو يطالع الأخبار، وعندما أنظف غرفته صباحا كنت أجد وسائدها مبعثرة في أرجاء المكان، أما الآن فوسائدها لا تمس وجانبها على السرير كما هو، وجريدة الصباح لا أجدها ملقاة على أرضية الحمام.

بالأمس حين كنت أحاول الكتابة، سمعت صوتا في البيت، لا، ليس صوت أبي، ولا الريح ولا صوت المذياع الذي ينساه مشتغلا وينام، لا، كان صوت أبواب تفتح، صرير، صوت خطوات ناعمة تصعد الدرج، ورنة كخشخشة أساورها. لكني لم أعد أخاف، فالأشباح تركت البيت منذ زمن بعيد ولا أظن أنها سترجع إليه قريبا.

"على فكرة تركت لك أمي مظروفا ختمته بإبهامها، وحلّفت ابي أن يعطيك إياه بعد انتهاء غربتك، أما أنا فلم تترك لي سوى رجل مهدم "

سألني اليوم عن موعد رجوعك، لكنه لم ينتظر الرد، بل أغمض عينيه وتركني معلقة في فراغ السؤال. في الحقيقة لم أسمع سؤاله في البداية وربما لم أفهمه، أعتقد أن الحروف هجرت مخارجها، فأصبحت الكلمات تخرج من فمه بشكل غير مفهوم، صرت أجد صعوبة بالغة في فهم الجمل الطويلة المدغمة التي يندر أن يقولها وعندما ينطق بها أبدو غير قادرة على فهمها.

هذه رسالتي الثالثة، كنت أجد كتابة الرسائل أمراً مملاً وأدعى للحزن، لكنها الآن تساعدني على تحمل سكون ما هو غير ساكن.

على فكرة، بالأمس رافقته للمستشفى، كان قد بدأ يحس بالإرهاق منذ الأسبوع الماضي، ثم بدأت حرارته بالارتفاع، المسكنات المعتادة لم تجد، الطبيب احتجزه لاجراء بعض الفحوصات.

لا تهتم، يبدو اليوم في حالة أفضل، ولو أنه لم ينطق طوال النهار إلا أن الممرضة قالت أنها سمعته البارحة يطلق أصواتا تشبه الدندنة.

لم أنم جيدا بالأمس، كنت أفكر بك، أحاول أن أتخيل وحدتك وأقارنها بوحدتي، كنت أسالك إن كان البرد يداهمك فجأة رغم دفء بيتك، هل تبحث في أدراجك عن رسائلي وتلصق صورنا على زجاج مرآتك؟ هلى تحلم

بي؟ هل تقطر لسانك وتبتلع ريقك متمنيا قطرات من البابلوه *؟ هل يوقظك صوت يشبه همس أساورها ؟ لأني لم أعد أستطيع النوم دون أن اغمض عيني على صرير الأبواب المحكمة.

خرج أبي من المستشفى بعد أن أكد الطبيب أنها أعراض تقدم السن المعتادة، وانه لا داعي للقلق، وبدا أحسن حالا، حتى أنه قضى نهاره كله في مكتبه يراجع أوراقه ، لكنه لم يتغد بل طلب الشاي مرتين خلال النهار وبدا منهمكا جدا، كمن يحاول إنجاز عمل اقترب وقت تسليمه. وفي حوالي السابعة، استدعاني وطلب مني أن أصحبه للعشاء، لم أظهر دهشتي، لكني وأنا أتجمل للخروج معه أعدت رسم وجهي مرتين، الأولى لأني وجدتها هي من تطل من مرآتي والثانية لأني أفسدت أصباغي بالدموع.

---

البابلوه : حساء سمك تقليدي

# مطاردة

ذهبت " مروة" إلى المخفر لتشتكي الرجل الذي طاردها في الشارع العام ليلة البارحة، وحاول كسر زجاج نافذتها عند الدوار. في المخفر لاحظت أن الشرطي أوقف نظراته على صدرها، فالتفت في عباءتها.

- هل تعرفين نوع السيارة ورقمها ؟

- نعم ، سوبارو عنابية ورقمها 1861 أ. ب

- هل أنت متأكدة ؟

- نعم

- لكن الوقت كان ليلا، وكنت خائفة، أليس كذلك ؟

- نعم، لكنه كان يطاردني لمسافة طويلة، فسجلت رقم السيارة على ورقة.

- لكن هذا الموضوع عادي ، يتكرر دائما، ولا تأتينا الفتيات للشكوى، بالعكس هناك من يعجبهن ذلك ويتعمدنه.

- لكنه لا يعجبني، ثم أن الرجل حاول كسر نافذتي عند الدوار،

أخبرتك بذلك ، وهذا أمر خطير.

- لا ، لا أظن، ربما أراد أن يعطيك رقم هاتفه.

- أسمعني، أنا أريد حقي من هذا الرجل الذي تجرأ على مهاجمتي، لذا أنا هنا ، أنتم الشرطة في خدمة المواطن ، أليس كذلك ؟

- بالتأكيد، لكن هذا أمر تافه جدا إذا ما قورن بالأمور الأخرى.

- ليس تافها بالنسبة لي، وأنا مصرة على تقديم البلاغ.

- حسنا، اتركي رقم هاتفك، وسنتصل بك عندما نلقي القبض عليه.

تجاهلت نبرة التهكم في صوته، أعطته رقم هاتفها النقال واستدارت للخروج، وهي تمشي إلى الباب أحست بعيني الشرطي على ظهرها كالوشم.

انتظرت "مروة " أسبوعا بأكمله، وعندما لم تتلق أي اتصال من الشرطة، عادت للمخفر، لتجد نفس الشرطي في مكانه. وعندما سألته عن البلاغ الذي قدمته، بدا وكأنه نسي الأمر برمته، مما اضطرها لإعادة القصة، وأظهرت له رقم البلاغ، حينها فقط، أظهر الاهتمام لكنه قال لها:

- تذكرت الموضوع، لكن يبدو أن البيانات التي قدمتها كانت خاطئة، فبعد البحث في سجلات الشرطة لم نجد أي سيارة سوبارو عنابية بالرقم الذي ذكرته.

- لكنني متأكدة من ذلك، مثل ما أنا متأكدة من أنك تجلس الآن امامي.

- لابد أن الذاكرة والظلام خاناك هذه المرة، لكن رجاء، في المرة القادمة قدمي لنا بيانات أكثر دقة، حتى يتسنى لنا القبض على المجرم الخطير الذي رافقك في رحلتك الليلية الى البيت.

كانت لهجته هذه المرة أكثر تهكما من المرة الماضية، وأحست أنه يوجه لها اتهاما ما، فلم يعجبها ذلك.

- اسمعني جيدا، في المرة القادمة لن آتي إليك.

خرجت، كانت تحس بالغضب، فاتكأت على جدار الممر حتى تسترد أنفاسها، من الداخل كانت تأتيها أصوات ضحكات صاخبة، أحست بالدم يجري ساخنا في عروقها، فأسرعت بالخروج من المخفر.

وهي تستدير بسيارتها لتخرج من المواقف أمام المخفر، لمحت سيارة سوبارو عنابية، فترجلت من سيارتها، واقتربت من السوبارو، وفتشت بعينيها داخل السيارة، في المقعد الخلفي رأت كابا أسود يغطي لوحة أرقام صفراء ظهر منها 1861 أ.ب.

فتشت الموقف بعينيها، وعندما تأكدت أن المكان خال إلا منها، أخرجت مفتاحها ورسمت على جسد السيارة خوف تلك الليلة وتهكم الشرطي ببراعة فائقة.

# ريـــا

يحكى

أن الملك الذي أعطي بعضاً من ملك سليمان، كانت له بنت جميلة على أكمل ما يكون الحسن سماها ريّا، وأنها كانت بأمر من أبيها لا تخلع حجابها إلا مختلية ولا يدخل عليها أحد من الرجال إلا أباها، وأن الأميرة الفاتنة كانت تختلي كل ليلة بمرآتها تناجيها و تبكي حتى يغلبها النوم.

وكان للأميرة شعر طويل يكنس الأرض إذا ما مشت، وأنها اشتكت لأبيها من مشقة غسله فأمر لها بجارية تعينها عليه. يقال أن الجارية وصفت الأميرة لأخيها، وكان واحدا من حراس القلعة، فوقعت في قلبه وطلب منها أن تتحايل له ليرى الأميرة فزجرته.

علم الحارس لاحقا أن الأميرة تخرج كل شهر في منتصفه لتجلو شعرها في ضوء القمر وأنها تكون وحدها لساعة أو بعض ساعة تمشط شعرها وتغني له، فتسلق أسوار القلعة ليلة اكتمال القمر وتحايل على الحرس حتى وصل السطح الذي كانت الأميرة قد اتخذته مجلسا لها.

توارى الحارس خلف إحدى النواصي وأخذ ينظر إليها حتى سقط مغشيا عليه، حين سمعت الأميرة صوت ارتطام جسده بالأرضية، فزعت، لكن

الفضول غلبها، فبحثت عن مصدر الصوت، وعندما رأته مسجى على الأرض، أخذت رأسه بين يديها وسالت دموعها حزنا عليه.

يحكى

أن قطرة من دمعها سقطت على شفتيه فانتفض وفتح عينيه وعندما تلاقت عيناهما أصابها ما أصابه من الوجد.

أخذ الحارس يزور الأميرة مرتديا ثياب النساء ملتحفا بعباءة كانت قد أعطته إياها، وكان يختلي بها ليحكي لها قصصا سمعها من التجار والمسافرين، ويردد لها الأشعار التي حفظها ويخبرها بأحوال العباد والبلاد.

يحكى

أن جنيا من تلامذة الملك اطلع على سرهما، فوشى بهما عند الملك الذي كان يتفقد إحدى عواصمه البعيدة وراء البحر. غضب الملك وخطّ بعصاه على الأرض وعندما نقل إحدى قدميه عبر الخط المرسوم على الأرض كانت الأخرى في غرفة الأميرة وكانت الأميرة نائمة.

يحكى

أن الملك جرّ الأميرة من شعرها وسحبها على الأرض فصرخت صرخة أفزعت الإنس والجان، فكتم أنفاسها بيديه وأمر الجدار أمامه فذاب فألقمه إياها، تخبطت الأميرة مرة أو مرتين ورفست الطين لكن الجدار أقفل عليها،

فاستسلمت وسكنت. لكن شعرها ظل خارج الجدار تثيره الريح ويسكنه الوجع، وصرختها تشق قلب الموتى، وعيناها الهلعتان تطلان من جدران القلعة حتى حرم السكن فيها.

يحكى

أن الملك بحث عن الحارس فوجده قد شق قلبه بسيفه، فأمر بإلقائه على سطح القلعة حتى تأكل قلبه النسور.

# رفرفة

تفردهما، تحركهما قليلاً، تضمهما ثانية، ثم تميل بعنقها فيتكىء رأسها على الجانب الأيسر، تغمض عينيها كمن آثر النوم، لكنها ما تلبث أن تفتحهما ثانية وتنظر نحو السماء الممتدة أمامها نسيجا من الأزرق المنحل في تلاشي اللون حين حلول العتمة، تتهادى نحو الحافة، تفردهما ثانية، يخفقان فترتفع، يخف الهواء فتعلو حتى تتلاشى نقطة في الغياب.

خولة على السطح تراقب حركة الحمامة، يتملكها الخوف حين تتراجع الحمامة وتغمض عينيها، يهزها الطرب إذ تنطلق، تنتشي بتحليقها، طارت الحمامة، فتحت لها باب القفص فخطت نحو البيدر الكحلي. ما بقي منها غير الظل في عين الشمس المنطفئة، خرجت من حيز القفص الضيق إلى رحابة المجهول. بحركة صغيرة تدفع بالقفص ليسقط على أرض السكة ويتناثر منه الحب ويندلق الماء صانعا بقعة صغيرة، يشربها التراب على عجل. تتسلل نقرات الدفوف إلى دمها إذ تفعل ذلك، تنبت في قدميها فتنة الرقص، تسري إلى كامل البدن حتى تمس النشوة رأسها.

طارت الحمامة وعندما ستعلم أمها بالأمر ستؤنبها كثيراً ، لكنها

ستخبرها بأن القفص سقط دون قصد منها وأن الحمامة شقت طريقها إلى السماء، وأمها التي ستعرف أنها تكذب، والتي تكتشف بسهولة كذباتها اللاتي بلون الملح وطعمه، ستعرف بأنها فتحت باب القفص، وأنها عن عمد أفلتت القفص وستعرف أيضا أنها اهتزت طرباً وأنها كادت، كادت .....

وستندلق بتفاصيل الحكاية التي رددتها حتى كلت جدران البيت من الإنصات، كل التفاصيل الصغيرة الموسومة بالغضب والمرارة.

كنت قد رجعت لتوي من المدرسة، عندما لاقاني وجه فرحانة، كان وجهها قد تخلى عن لونه الداكن وغشيته الصفرة، صفرة شديدة بلون الكركم، سألتها ما بها، لم تجب ولكن عينيها أشارتا إلى شبح أبي الذي توارى عند الباب، والذي استطال ظله على الأرض فجأة.

- أنت اليوم عروس.

ظننت أنه يتحدث عن مريلة المدرسة الجديدة.




- ستصبحين أجمل عروس عرفتها البلد.

أحسست بالحمرة تحرق خدي، فضحكت، لكنه لم يضحك، بل حدق في وجهي طويلاً، ثم استدار وخرج من الدار، نظرت في وجه فرحانة، فوجدته غائرا، ملتبساً، وكأن تفاصيله قد محيت .

تم زفافي في اليوم التالي ، قامت النسوة برسم نقوش حناء غريبة على كفي، أفهمنني أنها تعاويذ لحفظي من الجان، ألبست حلة من المخمل الأخضر الداكن، قالوا أصبحت عروساً، ضحكت، كنت سعيدة أتلهى، كل ما كنت أدركه، هو البيت والمدرسة والشارع القصير الذي يصل بينهما.

عندما قالت أمي إني زُوجت البارحة، فرحت، فالزواج كما كنت أعرف صهلة، وثوب جميل وحناء، ودقات طبول، وزفة وفرح.

" آه يا أمي، لو أنك لمحت تلك النظرة في عيني الحمامة، لو لمحت تجلي الشغف في خفقات الجناح، أو تلك الخفة ... تلك الخفة التي سبحت بها، كان الهواء ناعماً، أحسست به يداعب ريشها، أحسست به يداعب زغب البدن، وحتى النشوة التي اعترتها، كانت تسري في دمي

كالموسيقى، كدقات الدفوف، كرنين الصاجات."

وأدخلت عليه، لم أكن قد رأيته من قبل، تخيلته قريب الشبه بابن عمي، وسيما، قوي البنية، رائق الضحكة، لكن الرجل الذي أدخلت عليه كان هائلاً، مدبوغ الوجه، حاد التقاسيم، ميت النظرة، وتخيلته العفريت الذي رسمت النساء الطلاسم في يدي لتبعده عني.

أقفل الباب وتخلى الأهل، فمددت راحتي في وجهه، واجهته بالطلاسم، لكنه لم يختف ، كانت ركبتاي ترتجفان، أغمضت عينيَّ لأتجنب نموه نحوي، وعندما فتحتهما ، كنت ملقاة على الفراش وكان ثوبي قد انحسر إلى الأعلى، أحسست بألم حاد، تحسست جسدي فارتطمت باللزوجة الحمراء.

في الصباح جاءت فرحانة تحمل صينية الإفطار، وجدتني على حالتي تلك فهرعت إلى أمي، كان النزف شديداً، جاء الطبيب، أمر بنقلي إلى المستشفى، لكن أهلي رفضوا؛ في نظرهم أي دم يخرج من جسد أنثى عار وجب تجاهله.

قامت العجائز برتق الثقوب وخياطة الجرح، كنت غائبة أطلق أنات

صغيرة، لم أعرف ما الذي فعله، أو من أين يأتي النزف تحديدا، لكن الألم كان حاداً، أحسست بجسدي مجوفاً وفارغاً كأني بئر بلا قرار، أحسست بالحرقة تتمدد في داخلي وطعم كالصديد يغشى لساني، طعم حاد، مر، طعم لم يزل مذاقه في فمي.

"وعندما هاجمني البلوغ، أخضعتني للتحقيق ، هل سقطت على الأرض؟ هل تقاطع ظل رجل مع ظلك وأنت عائدة من المدرسة ؟ هل لعبت بخشونة في حصة الرياضة ؟ أجبت لا، أججت لاءاتي فيك الخوف، حتى تكرر الحدث، فعرفت أنه قد أصبح لخلخالي رنين، وأن الكحل في عيني لم يعد فقط لطرد الرمد."

رحلنا للمدينة ، تركت قرية أهلي، ولم أبك، كانت الدموع تنزل على خد أمي، وكان كبرياء أبي يلجمها، أما أنا فلم يرف لي جفن، لا أدري ..... بينهم تملكني إحساس طاغ بالغربة.

" قلت أن هديل الحمامة مهما بلغ به الحزن فهو جميل، جميل حتى حافة الألم، لكن الشرخ كان قد امتد إلى صوتها، أصابها الوهن من ترديد نحيبك، فانقطعت عن البكاء، لجت عيناها بالسكون، ذلك السكون الموحش الأقرب للعويل."

وفي المدينة أصبحت جارية مطيعة، أعرف كل واجباتي ولا أسأل عن شيء، أقضي نهاري مترددة كالصدى في غرف الدار الكثيرة الموحشة، وفي الليل أهرع إلى فراشي متجنبة أصابعه التي تتوغل في أنيني فتكتمه.

وحملت بك، تسعة أشهر من النزف الأبيض والأحمر، تسعة أشهر من الغثيان البشع، كنت أفرغ جوفي كل دقيقة، حتى استبد بي النحول، وخشي علي من الإجهاض، لكنك تشبثت بتلافيف رحمي، كنت تريدين الحياة بقوة، تمنيت لو تسقطين فتريحيني و ترتاحين، لكنك أبيت إلا أن تكملي شهورك التسعة وتخرجي للدنيا مكتملة بعد مخاض طويل ... طويل.

" وكانت الحمامة إذا ما تزاوج الليل والنهار و أنجبا المغيب، تصهر ريشها الرمادي في أذيال الغيم المغموس في التبدل، ترتجف حتى يدركها الظلام، فيتحول هديلها إلى نعيق مبطن بالشوق، كانت السماء التي استحالت حزناً واسعاً وعميقاً تحتل عينيها، وكان القفص الذي منحته فريسة يتسلى. "

تمنيتك صبياً، قلت لو رزقني الله صبيا لهان البلاء، ولوجدت فيه

العزة بعد الذل، والأمن بعد الخوف. كرهتك بادئ الأمر كما كرهت نفسي، لكنك خرجت للحياة ملفوفة في مخاطك اللزج وعندما جاء أهلي لزيارتي، وحضنك أبي، تبولت عليه، فقالت أمي هذه بشارة بصبي يأتي بعدها، بينما عبس وجه أبيك وازداد سمرة، وغالبت أنا ضحكة مرة.

تعلمت محبتك منذ أن بذلت لك دمي ليسيل حليباً في فمك النهم الصغير، أحببت صوتك الأقرب للثغاء، دبيب قدميك على الأرض، كلماتك المبهمة، عينيك المسكونتين بالدهشة، أحببت ارتماءك في حضني واستسلامك الهادىء للنوم.

لم تحبي أباك قط، وكان هو عابس الوجه دائماً، لم يحاول أن يداعبك، وأحيانا كثيرة ينسى وجودك، لم تكن لديك فرصة لمعرفته فقد ذهب، أخذته سيارة في طريقها إلى الشمال فهلك. حاول أهلي إرجاعي إلى القرية فرفضت، تعللت بك وبتجارة أبيك، كنت أعرف أننا إذا ما عدنا سيعودون إلى بيعي ... بيعنا.

وتغيرت كفة الميزان، بعد موت أبيك ورثت كل شيء، أصبحت أملك المال والأرض والدور، حفظت لك كل شيء، لم أغير الدار، لم أفرط في مثقال ذرة، أردتك أن تكبري وتشدي عودك وتحكمي في مالك،

علمتك كي تصبحي الصبي الذي لم أنجب، كي تتجاهلي ضعف النساء، وقلة حيلتهن، كي تكون لك كلمة.

"هل كان للحمامة خيار عندما رأت الباب مفتوحا؟ كان خروجها في حد ذاته أمنية، كنت أراقبها تخطو في ترددها نحو الباب الضيق، تملصت، عرفت طريقها، كان كل ما فعلته أني فتحت الباب، أما هي فقد استجابت لغواية الأفق ... يا إلهي! كم كان الأفق مزهواً بخفقات الأجنحة ! "

قالت لي فرحانة أن أبي خسرني في الرهان، تراهن أبي والرجل على من يسقط أكبر عدد من الحمام، الرجل راهن بمائة ريال، وأبي سكت لأنه لم يكن يملك المال، فسأله عندك بنات؟ قال له: لي بنت صغيرة، قال الرجل: إذن الرهان عليها، وعندما فاز الرجل لم يصدق أبي أنه سيأخذني، قال له أني لم أبلغ مبلغ النساء بعد، لكنه أصر على أني سأنضج في فراشه.

كنت صغيرة عندما رحل، أحسست بباب يغلق وألف باب تفتح، لم تكوني قادرة على إدراك الأمر، ولكني وقفت في وجه الجميع، وقلت للمرة الأولى: لا .... لن أعود، وعندما مات أبواي انقطعت كل علاقتي بالقرية،

لم أرغب في الزواج، لم تختلج جسدي رغبة في الحب، كنت أحس أن وجود أي رجل في حياتي هو طوق من نار، أنا وأنت وفرحانة شكلنا عائلة ولم نحتج لأي شخص.

" بعد أن نفضت الحمامة ريشها من وهن الحزن، رأيت تلاشيها يصبح حقيقة ،فهزتني النشوة، لا أخفي عليك، كانت النشوة صافية حتى أن دمي استجاب لها فغنى وتمايل جسدي فرقصت، وكان القفص حانقاً علي، كان ينظر إلي بغل، فدفعته من فوق السطح وأتبعت تناثره بضحكة شامتة ترافق حطبه حتى يستحيل رماداً، رماداً منثورا في عين العدم."

# إصداراتنا

| م | الكتاب | نوعه | المؤلف |
|---|---|---|---|
| 1 | سرديات عمانية | نقد | محمد بن سيف الرحبي |
| 2 | على حواف الشعر | نصوص | محمد بن سيف الرحبي |
| 3 | خطى وأمكنة | رحلات | عبدالرزاق الربيعي |
| 4 | رحلة أبوزيد العماني (ط2) | رواية | محمد بن سيف الرحبي |
| 5 | حقول الكلام | مقالات | مسعود الحمداني |
| 6 | هذا الذئب يعرفني | نصوص | خالد بن علي المعمري |
| 7 | رحيق النار | نصوص | زهران القاسمي |
| 8 | الطبيعة في الرواية العمانية | دراسات | منى بنت حبراس السليمية |
| 9 | إيضاح الطريقة للفنون العريقة فن المسبع | شعر | خميس بن جمعه المويتي |
| 10 | إيضاح الطريقة للفنون العريقة التغرود | شعر | خميس بن جمعه المويتي |
| 11 | قديس يحلق بعيدا | شعر مترجم | ترجمة/ أشرف أبو اليزيد |
| 12 | مظلة الحب والضحك | نصوص | بشرى خلفان |

## اصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

| | | | |
|---|---|---|---|
| 1 | لعيني ديالى | نصوص | محمد بن حبيب الرحبي |
| 2 | الخيمة ومفاتيح الحظ | مسرح | عزة القصابية |
| 3 | لآلىء عربية | مقالات | ناصر بن حمود الحسني |
| 4 | بين قدرين | رواية | رأفت ساره |
| 5 | تحت المطر | مقالات | خالد بن علي المعمري |
| 6 | المشهد القصصي في الأردن | دراسات ونصوص | مجموعة كتاب أردنيين |

## إصداراتنا بالتعاون مع البرنامج الوطني لدعم الكتاب بالنادي الثقافي

| | | | |
|---|---|---|---|
| 1 | النباتات البرية في سلطنة عمان | علوم | يحيى بن سعيد القطيسي |
| 2 | ابن عربي عندما يكون الحب حائرا | دراسات | عثمان بن موسى السعدي |

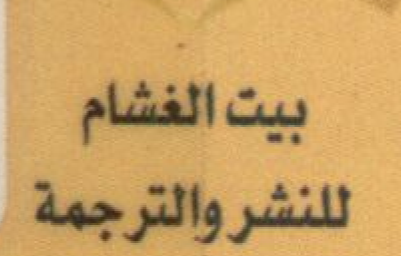
## إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للمسرح

| | | | |
|---|---|---|---|
| 1 | الآخر في المسرح العماني | دراسة | د. كاملة بنت الوليد الهنائية<br>د. سعيد بن محمد السيابي |

# رفرفة

" آه يا أمي، لو أنك لمحت تلك النظرة في عيني
الحمامة، لو لمحت تجلي الشغف في خفقات الجناح،
أو تلك الخفة ... تلك الخفة التى سبحت بها ، كان
الهواء ناعما ، أحسست به يداعب ريشها ، أحسست
به يداعب زغب البدن ، وحتى النشوة التى اعترتها ،
كانت تسري في دمي كالموسيقى، كدقات الدفوف،
كرنين الصاجات. "





بيت الغشام
للنشر والترجمة

ISBN 978-99969-55-19-8


9 789996 955198